

التوجيه الأخلاقي للحضارة عند مالك بن نبي

طبيبي سيد أحمد

جامعة الجزائر 2

sidahmed092011@hotmail.fr

ملخص:

تمثل مشكلة الحضارة أبرز موضوع تناوله المفكر الجزائري، مالك بن نبي (1905م-1973م) في مؤلفاته المختلفة، فهو الطرح الذي يراه القاعدة السليمة لتجاوز التخلف في المجتمعات العربية الإسلامية، بيد أنه جعل للحضارة توجيهها أخلاقيا بعيداً عن التأسيس الفلسفي الذي ساد في التراث الكلاسيكي، في هذا السياق يرمي هذا المقال إلى النظر في مساهمة هذا المفكر في قراءة جديدة لطبيعة العلاقة بين الحضارة والأخلاق، وذلك انطلاقاً من التساؤل الرئيسي المتمثل في ما مدى ارتباط الأخلاق بالنهضة الحضارية، وكيف ينظر إليه هذا المفكر من خلال مؤلفاته، خاصة كتابه شروط النهضة، ولعل أهمية هذه الدراسة أنها تتحدد في نقطتين:

أولاً: أنها بينت أن التأسيس الأخلاقي للحضارة يمثل نظرة اجتماعية واقعية.

ثانياً: عرضت درساً يفيد في تأصيل الفكرة الحضارية في فضاء الفكر العربي المعاصر، وقد حاولت في هذه الدراسة اعتماد كل من المنهج التحليلي والمنهج المقارن، ومن هنا توصل الباحث في نهاية المقال إلى مجموعة من النتائج أهمها أن الأخلاق تحتل مكانة محورية في فكر مالك بن نبي، وأنها رؤية واقعية وروح نقدية، وأن الفاعلية الحضارية تقوم على التوجيه الأخلاقي.

الكلمات الدالة: الحضارة – الأخلاق – التوجيه – الفاعلية – النهضة – الإنسان – التراب – الزمن.

Abstract:

The problem of civilization is the most prominent topic addressed by the Algerian thinker, Malik bin Nabi (1905 - 1973 AD) in his various works, it is the discourse that he sees as the sound basis for overcoming underdevelopment in Arab Islamic societies, but it has made civilization a moral orientation away from the philosophical foundation, in this context This article aims to consider the contribution of this thinker to a new reading of the nature of the relationship between civilization and ethics, and this is based on the main question of the extent to which ethics relates to civilization renaissance. Therefore, the importance of this study is determined by two points:

First, it showed that the moral foundation of civilization represented a realistic social view.

Second: It highlights the value of the civilized idea in the space of contemporary Arab thought. In this study, I tried to adopt both the analytical approach and the comparative approach, and from this the researcher reached at the end of the article a set of results, the most important of which is that ethics occupies a central position in the thinking of Malik bin Nabi, and it is a realistic vision and a critical spirit.

Key words : civilization - ethics - direction - effectiveness - renaissance - human - soil - time. .

مقدمة:

من الواضح أن من يقرأ كتابات المفكر الجزائري مالك بن نبي، يلاحظ مدى حرصه على تجديد الفكر العربي الإسلامي المعاصر، في سياق رؤية جديدة قوامها فلسفة حضارية معاصرة، جامعة بين العقل والغيب، وبين النظر والواقع، وبين العلم والقيم على اعتبار أن هذا التوافق هو السبيل الأمثل إلى تجسيد النهضة الشاملة بمختلف مقوماتها وأركانها .

وعليه، فإن منهجية هذا المفكر، هي تحرير ذهن الإنسان المسلم المعاصر من عوائق التقليد والتبعية، ومن ثم النظر في المفاهيم والقضايا واستشكالها من جديد، ومن ذلك التوجيه الأخلاقي في الحضارة، الذي تم تناوله بطريقة جديدة لم تعهده الدراسات الكلاسيكية في سياق التراث العربي الإسلامي، بحيث يعد المبحث الأخلاقي مبحثا فلسفيا ضمن مرجعيات محددة، وعليه ، فإن هذا المقال يهدف أولا إلى النظر في مساهمة مالك بن نبي في قراءة جديدة لطبيعة العلاقة بين الحضارة يمكن أن يمثل نظرة اجتماعية واقعية بعيدة عن الطرح النظري المغلق. وثانيا: أنه يعرض لنا درسا يفيد في تأصيل الفكرة الحضارية في الفكر العربي المعاصر.

ومن هنا تكون الإشكالية التي نحاول الاشتغال عليها في هذا الموضوع على النحو التالي: إلى أي حد يمكن الربط بين الأخلاق والنهوض الحضاري عند مالك بن نبي؟ وكيف عالجه من خلال مؤلفاته المختلفة، وهل يمكن الحديث هنا، عن أفق فلسفي أم رؤية واقعية ونقدية؟

هذا، وإن ما يمكن أن نحققه في سياق النقاش العلمي الدائر حول هذا الموضوع، هو إمكانية استثمار فكر مالك بن نبي الحضاري في حل مشاكل الإنسان المسلم عامة، والجزائري خاصة في شتى الميادين النفسية والعقلية والاجتماعية والسياسية، وكل ما يتعلق بقيم العولمة والعلاقة مع الآخر.

هذا، ولقد التمسنا خطة نحاول من خلالها أن نغطي جوانب هذا الإشكال الأساسي في هذا المقال وهي تتألف من العناصر التالية:

أولا: الأخلاق والرؤية الحضارية في التراث العربي الإسلامي.

ثانيا: التوجيه الأخلاقي للحضارة : المنطلقات، الأسس والنتائج.

ثالثا: المنحى النقدي لحضور الأخلاق في الرؤية الحضارية.

أولا: الأخلاق والرؤية الحضارية في التراث العربي الإسلامي.

يعد موضوع الأخلاق من أكثر المواضيع مبعثا للسجال في التراث العربي الإسلامي، خاصة ما يتعلق بتحليل اتجاهاته ومرجعياته المختلفة، بيد أن المرجعية اليونانية وإن كانت تمثل واقعا تاريخيا وفلسفيا لا يمكن تجاهل دورها وتأثيرها في الفكر الإسلامي، فإنها ليست وحدها ضمن السياق المرجعي للأخلاق، بل هناك حقول وتيارات متعددة، ذلك أن "الفلسفة في ثقافتنا لم تكن هي أم العلوم كما عند اليونان وفي أوروبا عصر النهضة، بل كانت هي وعلومها صنفا واحدا من العلوم، وبالتالي

كانت هناك مجالات أخرى للخطاب الأخلاقي خارج الفلسفة" (محمد عابد الجابري، 2001، ص 622).

ومن هنا نرى أن التراث الأخلاقي عند اليونان أخذ طابعا تجريديا عقليا يتميز عن التقاليد الدينية السائدة، وذلك أن "أبرز صفة لحضارة الأثينيين هي محبة المعرفة أو الحق أو هي الإيمان بالعقل" (أحمد فؤاد الأهواني، 2009، ص 05)، بينما الحضارة العربية الإسلامية، حتى وإن كان أبرز مكوناتها العلوم اليونانية من فلسفة وهندسة وطب ومنطق إلا أن حضور المعطى الديني كان له تأثير بارز لا يمكن تجاهله، وهو الأمر الذي أدى إلى المواجهة بين الفلسفة والدين التي أفضت إلى رفض وتعارض بينهما، وإما التقاء أو تأثر وتأثير بينهما (محمد علي أبو ريان، 1973، ص 12)، وهو ما يبين أن الرؤية الحضارة لم تكن متطابقة، وتبعاً لذلك، فإن البحث في الأخلاق في التراث العربي الإسلامي، يأخذ نفس المسار، أي رفض الموروث اليوناني واعتباره دخيلاً والاكتفاء بالنص الديني كمرجع وحيد للأخلاق، أو الانفتاح على آراء أفلاطون (347 ق.م)، أو أرسطو (322 ق.م) أو أبيقور (270 ق.م) أو غيرهم.

ومن هنا، كان الانشغال الأكبر هو السعي إلى التوفيق بين المسارين، فغاب تبعاً لذلك، الاهتمام الفعلي بمفهوم الحضارة ومقوماتها وفعاليتها، والاستثناء الوحيد هنا، هو ما قام به العلامة ابن خلدون (806هـ) من خلال "المقدمة" حيث تطرق إلى أخلاقيات مرحلة الحضارة، وكيف أنها مؤذنة لخراب العمران البشري.

إذن، نلاحظ أن الدراسات السابقة تناولت الأخلاق ضمن السياق المرجعي الذي يمثل سلطة مركزية في التراث العربي الإسلامي، ومن هنا تشكلت عناصرها وفقاً لطبيعة الرؤية الفكرية والآليات المنهجية، وعليه يمكننا أن نحدد هذه المرجعيات أولاً في المرجعية الدينية التي تعتمد على الأصول الدينية من قرآن كريم وسنة نبوية شريفة وأقوال الصحابة والتابعين في "دراسة وتبويب كل ما يتعلق بالمعاني الأخلاقية، وهنا يجدر بنا أن نشير إلى أن نظامها الأخلاقي مبني على الوحي، فهو المصدر الأهم للأخلاق وعليه، لا يصح التدعيم والبرهنة على القضايا الأخلاقية بمناهج أخرى" (مجموعة مؤلفين، 2012م، ص 75) ولهذا فإن درجة الكمال الإنساني تنال بمعرفة الله وعبادته التي تمثل الأخلاق جانباً بارزاً منها.

وتشير المرجعية الكلامية ثانياً إلى ذلك الجدل الذي دار حول التوحيد والصفات وأفعال العباد والجبر والاختيار والعدل والحسن والقبح وغير ذلك، وهو ما يؤلف في واقع الأمر، "ميدانياً خصباً لاستشكال سؤال أخلاقي عربي إسلامي أصيل بدلالته الخاصة، بما أن موضوع النظر فيه هو الإنسان في علاقاته بالله الذي هو مصدر المعايير العملية في الإسلام" (نورة بوحناش، 2013، ص 101).

وهنا أخذ الفكر الأخلاقي عند المتكلمين منحى جدلياً قوامه مواقف بين مختلف الفرق حول من يؤسس الأخلاق العقل أم النقل، والبحث عن مختلف الصيغ للرد على هذه البراهين أو تلك.

ثم تأتي المرجعية الصوفية ثالثاً لتؤكد على تصور آخر للأخلاق، وهو ما يعني أن التصوف هو التخلق بالأخلاق الإلهية (عبد الرزاق الكاشاني، 1982، ص 15)، وهو ليس برسوم ولا علوم ولكنه الأخلاق (القشيري، 2001م، ص 156).

معنى هذا، أن منهج البحث في الأخلاق يختلف عن باقي المرجعيات الأخرى، وهو بذلك بعيداً عن الجدل والترف العلمي، بل هو السعي إلى تقوية وتنمية الجانب الروحي لدى الإنسان، وأخيراً، المرجعية الفلسفية التي تطلق على مجموعة المؤلفات التي تعتمد على النظر العقلي في إدراك المعاني الأخلاقية والذي أسس عناصره أعلام الفلسفة اليونانية، وهنا يحضر أفلاطون (347ق.م) وأرسطو (322 ق.م) في العناوين الرئيسية للإنتاج الأخلاقي عند فلاسفة الإسلام، إضافة إلى الأصول الإسلامية (34 ق.م).

ولنبداً مثلاً بالفارابي الذي وظف المفاهيم الأخلاقية التي اشتغل عليها اليونان، فعن السعادة يقول أنها : " هي غاية ما يتشوقها كل إنسان، وأن من ينحو بسعيه نحوها، فإنها ينحوها على أنها كمال ما، فذلك ما لا يحتاج فيه بيانه إلى قول " (الفارابي، ص227) . وينتهي به الأمر إلى التأكيد على أن الفلسفة هي التي بها تُنال السعادة، ولا يكون ذلك إلا بصناعه المنطق (الفارابي، 1983، ص261) ، أما مسكويه (421هـ) فقد سار على نهج أفلاطون في حديثه عن قوى النفس، وما يتعلق بها من فضائل ورذائل، كما أنه يأخذ بنظرية أرسطو في الوسط العادل حيث يقول: " فعلى هذا ينبغي أن يفهم معنى الوسط من الفضيلة، إذا كانت بين رذائل بعدها منها أقصى البعد (مسكويه، 1961، ص29)، وبشان السعادة، نراه يوفق بين أفلاطون وأرسطو، ويذهب إلى أنها لا تتحقق للإنسان إلا بالجمع بين المبدئين الروحاني والجسماني، وأن السعيد التام هو الذي توفر خطة من الحكمة ويكون خالياً من الآلام والحسرات. أما ابن باجة (533هـ) فقد أكد على أن السعادة القصوى تنال من خلال دراسة العلوم الفلسفية إلا النظرية أي العلم الذي يكتسب بالتأمل والاستدلال وهي أعلى مرتبة يحقق فيها الإنسان كماله .

وأخيراً، فقد ألف أبو حامد الغزالي (505هـ) في الأخلاق كتابين مهمين هما "ميزان العمل" و"إحياء علوم الدين، ويبدو لنا أنه قد أبان عن نزعة توفيقية واضحة، تابع أفلاطون في القول بفضيلة العدالة وأكد على أن الأخلاق وليدة التربية والتعليم والإلهام، وأخذ بنظرية التوسط التي يسميها الاعتدال بوصفها معيار التوسط بين العقل والشرع، (الغزالي، 2005، ص99).

واهتم بالسعادة وجعل السعادة الأخروية أهم من السعادة الدنيوية، لأنها أكثر دواماً وأعم سروراً (الغزالي، ص19). كما أننا نجد في كتاب الإحياء، منحى صوفياً، وسعي إلى التقريب بين التصوف والشرعية، وبين الدين والأخلاق. وعلى العموم، فإن حجة الإسلام، قد تعامل مع الأصول الدينية والفكر اليوناني والتصوف في سياق متكامل.

هذا عن حضور الأخلاق وإشكالياتها المختلفة في تراثنا العربي الإسلامي من حيث مرجعياتها المتعددة، بيد أن ما نسجله في سياق مساهمة الدراسات السابقة حول موضوع الأخلاق، أنها وإن حاولت صرف جهد من قام بها في فرز وغربلة الآراء الأخلاقية ضمن المرجعيات التي تحدثنا عنها، فإنها في واقع الأمر تتدرج في سياق تاريخي ومعرفي خاص، لم تطرح فيه الإشكاليات الحضارية كما هو سائد اليوم، وبالتالي، فإن ما يضيفه هذا المقال هو قراءة معاصرة للأخلاق على ضوء ما يشهده العالم من صراع حضاري واضح المعالم، وأن مالك بن نبي قد استفاد من جدل هذه المرجعيات في بناء تصوره للعلاقة بين الأخلاق والحضارة.

ثانيا : التوجيه الأخلاقي للحضارة : المنطلقات، الأسس والنتائج

لقد أولى مالك بن نبي المسألة الحضارية اهتماما كبيرا، وحدد مفهومها من جوانب متعددة، منها "أنها جملة العوامل المادية والمعنوية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره (مالك بن نبي مشكلة الأفكار، 1992، ص42). فالفرد أي الإنسان في ظل الحضارة يحدد مصيره ويحفظ شخصيته في ظل التوازن بين الحياة المادية والمعنوية، ولهذا، يبدو لنا أن عامل الإنسان بالنسبة إليه مهم في تحقيق الوثبة الحضارية، لهذا، فإن كل تفكير في مشكلة الإنسان كما يقول هذا المفكر هو تفكير في مشكلة الحضارة (مالك بن نبي، الفكر الأفرو الآسيوية، 1979، ص61)

في هذا السياق، فإن الحضارة هي عبارة عن إبداع وليس تكديسا ولا جمعا لركام من الأشياء، فهي بناء وتركيب للعناصر الثلاثة (الإنسان والتراب والزمن)، ويستنتج هنا أن العقيدة الدينية هي التي تقوم بدور المركب وتمزج العناصر الثلاثة ببعضها البعض، وهذا يعني أن الحضارة هي مجموعة من العلائق التي لا توصف، والتي تبعثها أي حضارة داخل أسيانها وأفكارها من جانب، وبين هاتين المجموعتين والإنسان من جانب آخر (مالك بن نبي، شروط النهضة، 1986، ص43).

وعليه، فإن كل ناتج حضاري تنطبق عليه الصيغة التحليلية الآتية : الناتج الحضاري = إنسان + تراب + وقت وهذا يعني أنه لكي تقيم بناء حضارة، لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات، وإنما بأن نحل المشكلات الثلاثة من أساسها وهي مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت. (شروط النهضة، 1986، ص45)، وعليه، يذهب هذا المفكر في "ميلاد مجتمع" أن الجماعة الإنسانية تكسب صفة "المجتمع" عندما تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها، وهذا يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة، وعلى خلاف ذلك، فإن الجماعات الساكنة لها حياة اجتماعية دون غاية، فهي تعيش في مرحلة ما قبل الحضارة (مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، 2013م، ص18). ومن هنا، فإن الحضارة ما ليست إلا نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع ما قبل التحضر التي تدخل به التاريخ (مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 1992، ص41)، ويبنى هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج الأصلي لحضارته "فيكون للأفكار في فترة دخول المجتمع التاريخي دور وظيفي فعال، ومن ثم القدرة على القيام بالوظيفة، هي طريق الحضارة" (عمار طالبي، 2005، ص135).

معنى هذا أن المجتمع لكي يؤدي نشاطه المشترك، ينبغي أن تتوفر فيه شبكة العلاقات التي تؤلف عناصره المختلفة النفسية والزمنية، وأن هذه العلاقة في أساسها قيمة ثقافية يمثلها القانون الخلقي والدستور الجمالي الخاص بالمجتمع، لذا فإن القيمة الخلقية تعد عنصرا جوهريا في النشاط المشترك الذي يتم بفضل وجود شبكة العلاقات الاجتماعية (مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، 2013م، ص48).

وهذا يطرح مالك بن نبي فكرة التوجيه لتحقيق الفعالية النهضوية المنشودة، ويقصد به "قوة في الأساس وتوافق في السير ووحدة في الهدف، فكم من طاقات وقوى لم تستخدم، لأننا لا نعرف كيف نكتلها" (شروط النهضة، 1986، ص78)، لهذا، فإن الإطار الحضاري بكل مكوناته متصل بالتوجيه الأخلاقي الذي يريده مالك بن نبي أن يهتم به لا من الزاوية الفلسفية، بل من الناحية الاجتماعية، إنه لا يقصد هنا تشريح

مبادئ خلقية بل أن نحدد (قوة التماسك) اللازمة للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية، هذه القوة مرتبطة في أصلها بغريزة (الحياة في جماعة) عند الفرد، والتي تتيح له تكوين القبيلة والعشيرة والمدينة والأمة (...). والمجتمع الذي يتجمع لتكوين حضارة، فإنه يستخدم نفس الغريزة، ولكنه يهذبها ويوظفها بروح خلقية سامية، وهذه الروح الخلقية منحة من السماء إلى الأرض، تأتيها مع نزول الأديان، عندما تولد الحضارات، ومهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض (شروط النهضة، 1986، ص88).

هذا يعني أنه ما دامت هناك قيم وأخلاق ومثل مرتبطة بالإنسان وإرادته، فإنه ما من شك في أن المجال الحيوي لتنفيذ هذه التوجيه الأخلاقي، لا يمكن أين يكون إلا الواقع الذي هو الميدان الذي تحيا فيه الحضارة وتنمو وتتقدم، ويضيف مالك بن نبي أن قوة التماسك الضرورية للمجتمع الإسلامي موجودة بكل وضوح في الإسلام، ولكن كما يقول أي إسلام؟، الإسلام المتحرك في عقولنا وسلوكنا والمنبعث في صورة اجتماعي، وقوة التماسك هذه جديرة بأن تؤلف لنا حضارتنا المنشودة (مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، 1984، ص81).

من هذا المنظور، يقدم لنا مالك بن نبي، افتراضا مفاده لو أن الحضارة ألغت من حسابها، الأساس الأخلاقي، لسري الإلغاء على جميع ما تشاهده من علوم وفنون، حيث لو تناولنا جهاز الراديو لرأينا فيه مجهودات علمية وفنية مختلفة، دون أن يخطر ببالنا أثر القيم المسيحية في بنائه، بينما هو في الواقع أثر من آثار تلك العلاقات الاجتماعية التي هي في أصلها سوى الرابطة المسيحية التي أنتجت الحضارة الغربية (مشكلة الثقافة، ص80-81).

أكثر من ذلك، فإن من صور تدخل الأخلاق في الحضارة، أنها تعد عاملا يساعد على النشأة في بداية ظهورها، وهذا في قوله "فإن البذور الأخلاقية والجمالية تكون أقرب إلى الكمال، حتى تصبح بالتالي القوانين المحددة التي يخضع لها نشاط المجتمع، والدستور الذي تقوم عليه حضارته، (شروط النهضة، ص100).

أما في مرحلة الارتقاء والنمو، فإن للأخلاق دور مهم، ويتمثل كما يشير إلى ذلك هذا المفكر في أن المبدأ الأخلاقي "يقوم بالضبط ببناء عالم الأشخاص الذي لا يتصور بدون عالم الأشياء ولا عالم المفاهيم (مالك بن نبي، التأملات، 2002، ص148).

أما في مرحلة الانتقال من خروج الحضارة من طور الروح ودخولها طور الحقل، فإن للأخلاق دورا حاسما وهو ما يعبر عنه في قوله : "وأثناء مواصلة التاريخ سيره، نرى هذا التطور يستمر في نفسية الفرد، وفي البنية الأخلاقية للمجتمع الذي يكف عن تعديل سلوك الأفراد، وبقدر ما تتحرر هذه النزعة في قيودها في المجتمع، يكف التحرر الأخلاقي الذي يمارسه الفرد في أفعاله الخاصة شيئا فشيئا (شروط النهضة، ص69).

وهكذا نفهم من هذا أن حديث مالك بن نبي عن الدورة الحضارية بمختلف أطوارها، يرتبط بتدخل العنصر الأخلاقي وفاعليته، وبمجرد أن تدخل الحضارة مرحلة التفسخ وتفقد الروح نهائيا الهيمنة التي كانت لها على الغرائز المكبوتة، فإن الإنسان يكون قد تفسخ حضاريا ويدخل في عهد ما بعد الحضارة (شروط النهضة، ص70)، وتبعاً لذلك، لا يكون للتوجيه الأخلاقي في هذه المرحلة، أي دور أو وظيفة،

على اعتبار أن الغرائز قد سيطرت عليه، ولم يعد قادر على تغيير واقعه نحو الأفضل.

بهذا ندرك أهمية التوجيه الأخلاقي عند مالك بن نبي، فهو معيار لفاعلية المجتمع والأفراد التي قد تزيد أو تنقص بقدر ما يزيد هذا المبدأ أو ينقص، وعليه فهو الشرط المنظم لعلاقات الأشخاص تنظيماً يناسب المصلحة العامة (مالك بن نبي، تأملات، ص148).

يتحصل من هذا، أن هذا المفكر لا يعتبر المرجعية الدينية للأخلاق عائقاً أمام تأسيس الحضارة لأن الذي يمنح الإنسان قوة تمكنه من حمل رسالة الحضارة في نفسه هو الدين وحده، وكذا، فإن الروح المشبعة بالقيم الدينية في أول طور من أطوار الحضارة تتمكن من ترويض الغرائز البشرية، والعقل في الطور الثاني لا يملك سيطرة الروح على الغرائز بخلاف القيم الدينية، (عبد اللطيف عبادة، 2007م، ص179).

بهذا نفهم أن الأخلاق هي محور النمو الاجتماعي والثقافي والاقتصادي وهي بذلك ليست موضوعاً فلسفياً نظرياً خالصاً، بل هي نظرة اجتماعية واقعية يتحدد بها تماسك المجتمع ووحدته.

ثالثاً: المنحى النقدي لحضور الأخلاق في الرؤية الحضارية

لقد أوضحنا فيما سلف، ما بين الدراسات والبحوث السابقة حول الأخلاق في التراث العربي الإسلامي، وموقف مالك بن نبي من اختلاف إن على مستوى السياق المرجعي أو النظرة الشمولية للموضوع، ولهذا، فإن ما يمكن قوله في هذا السياق، أن المساهمات السابقة لها مجالها الفكري الخاص، ومنهجها التي تنفرد به، واتجاهات العصر الذي ظهرت فيه، وأنها قدمت ما لديه من أفكار بحسب الجهاز المعرفي السائد آنذاك. ومن ثم لا يجوز المقارنة بينهما وبين ما هو سائد راهناً، لأن ذلك يشكل استثماراً انتقائياً للتراث، لا يؤدي إلى إدماجها ضمن الحقل الثقافي التي تنتمي إليه، والمحكوم بصراع النظم الثقافية المختلفة.

وعليه، نحاول في هذا العنصر أن نركز أولاً على إبراز ما يميز حضور الأخلاق في الرؤية الحضارية عند مالك بن نبي عن المساهمات السابقة، وثانياً، على بسط المنحى النقدي لهذه الرؤية وارتباطها بالأخلاق. سيكون علينا أن نحلل هذين العنصرين بشيء من التفصيل:

أولاً: بناء على ما أشرنا إليه من أن الأخلاق عند هذا المفكر، من خلال المؤلفات التي اطلعنا عليها، تمثل نظرة اجتماعية واقعية، فإن ما يترتب على هذا القول هو أن الغاية التي يصبو إليها هي منطق الحركة والعمل، لأن منطق الفكرة في نظره ليست متعذرة لدى الفرد المسلم الذي تنقصه الحركة والعمل، لهذا نراه ينتقد عطالة إنسان ما بعد الموحدين، الذي لا ينقض إلا على الفرائس السهلة ويتكل على العناية لكي ترزقه، كما وجه انتقاداً لاذعاً لمن يحصر الحياة الأخلاقية على الخلاص الفردي ويهمل خلاص الجماعة وفي فعالية الفرد اجتماعياً، كما أنه اعتبر القابلية للاستعمار ليست مجرد حالة نفسية، بل هي موقف أخلاقي يجعل الإنسان يتواكل ولا يقاوم الاستعمار بالوسائل الموجودة بين يديه (عبد اللطيف عبادة، 2007، ص156).

ولمواجهة هذا الواقع، يدعو مالك بن نبي إلى تغليب كفة الواجبات على كفة الحقوق والقضاء على منطق السهولة والارتباط بالمنطق العملي، لأن العقل المجرد متوفر

ولم يحقق الغاية، بخلاف العقل التطبيقي الذي يتكون من جوهره من الإرادة والانتباه، فشيء يكاد يكون معدوماً، أكثر من ذلك، فإن حياتنا اليومية تتسم بجانب كبير من اللافاعلية في أعمالنا إذ يذهب جزء كبير منها في العبث والمحاولات الهائلة، وهذا بسبب افتقادها الضابط الذي يربط بين عمل وهدفه، بين سياسة ووسائلها، وبين ثقافة ومثلها وبين فكرة وتحقيقها (شروط النهضة، ص96).

ومن هنا، فإن الذي يمنع المسلم من التقدم، ليس منطق الفكرة ولكن منطق العمل والحركة.

ويتطرق هذا المفكر في مؤلفه الظاهرة القرآنية إلى الأخلاق اللادينية التي تقيم حسبها أعمال الإنسان على أساس المنافع الشخصية العاجلة التي صارت أساس المجتمع المدني في حين أن الأخلاق الدينية أو كما يسميها التوحيدية تحترم أيضاً المنفعة الشخصية ولكنها تمتاز برعاية منافع الآخرين، الأمر الذي يجعلها تدفع الفرد إلى طلب ثواب الله قبل أن يهدف إلى فائدته، بيد أنه المبدأ الأخلاقي للثواب في كل من التوراة والإنجيل سلبي كونه يأمر الناس بالكف عن فعل الشر في حالة وبعد مقاومة الشر في أخرى، وهذا ما لا يتوافق مع منهج الأخلاق التوحيدية الذي يقر بلزوم مقاومة الشر. (مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، 1987م، ص207)

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، يذهب مالك بن نبي إلى أن فكرة الجزاء أصبحت لدى من يؤمن بالإنجيل من مسائل الآخرة وأضحت برمتها من الهموم الشخصية، أما في الديانة اليهودية فيكون الجزاء في ذلك النصر الموقوت، وهو ما لا نجده في حسبه في القرآن الذي يقيم بناءه الخلقي على أساس القيمة الخلقية للفرد وعلى العقابة الدنيوية للجماعة، فالفرد ينتظر ثوابه المستحق يوم الحساب، وأما الجماعة فإن جزاءها عاجل لأن القرآن يدعونا إلى تأمل العقاب الدنيوي في عواقب الأمم السائدة والحضارات. (الظاهرة القرآنية، ص208).

بهذا ندرك أهمية المنطق العملي والرؤية الواقعية للأخلاق، حتى وإن بدا لنا في التراث العربي الإسلامي ملامح من هذا الاتجاه، بيد أنه كان استثناءاً لدى من اشتغل عليه، ومن ذلك ابن خلدون الذي يذكر في "المقدمة"، المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية لمرحلة الحضارة، والتي تتأكد من صدقية كلامه من خلال تحليلنا حضارة المجتمعات المتقدمة في العصر الحديث (محمود الزواوي، 2006، ص124).

يترتب إذن على ما ذكرناه، ميزة أخرى وهي النظرة الشمولية للأخلاق، إذ تجاوز مالك بن نبي الموضوعات الأخلاقية الكلاسيكية من قبيل السعادة والفضائل، اللذة، الوسط العادل والخير الأقصى وغير ذلك، وعمد بعد ذلك إلى توسيع ميادين الحضور الأخلاقي في الجوانب التربوية والثقافية والاقتصادية وغيرها، وهو منحى غير مسبوق في فكرنا العربي المعاصر، لأن أخذه بهذا النظرة الشمولية يجعل الحضارة مبدأ قويا ومتماسكا.

ومن هنا، يمكن أن نشير إلى بعض من أوجه هذه النظرة، من ذلك مثلاً أن الأخلاق هي من أولى المقومات في الخطة التربوية لأية ثقافة أو حضارة، "لأنه قبل أن تتكون لدى الأفراد حاجة داخلية إلى أن يعملوا ما وسعهم من جهد، فإن المجتمع لا يمكن أن يعفى نفسه من مهمة تحديد أصول هذا العمل (مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلام، 1992م، ص86). فمشكلة الأفكار حسبها هي التي توجه كل

المجتمعات كونها الدافعة إلى العمل وإلى الحرص على أداء الواجب، وعلى هذا الأساس، فإن بناء هذا الفرد لا يتحقق دون أساس من القيم الأخلاقية وهنا تظهر قيمة تربية الإنسان تربية أخلاقية تعلمه الصدق والواجب والتسامح والصبر والحق والاحترام، والقرآن الكريم يؤكد على هذا في كل آياته. (حامد عزيز، التربية والحضارة في فكر مالك بن نبي، 2010م، ص118-119).

وبناء على ما تقدم، نشير إلى أن دور البعد الأخلاقي في عملية التوجيه التربوي من الأسرة إلى المدرسة مهم في تدعيم الصلات الاجتماعية، ولعل هذا التوجيه يستمد روحه من الإسلام ذاته، وهنا يقدم لنا مثالا وجيها مفاده أن روح الإسلام هي التي خلقت من عناصر متفرقة كالأنصار والمهاجرين أول منهج إسلامي حتى كان الرجل في المجتمع الجديد يعرض على أخيه أن ينكحه من يختار من أزواجه بعد أن يطلقها له لكي يبني أسرة (شروط النهضة، ص90). وفي نظر أحد الباحثين، فإن مالك بن نبي يعطي للعنصر الأخلاقي في إطار التربية الاجتماعية مكانة هامة، محاولا في الإنسان جملة من المبادئ كمبدأ التكامل الاجتماعي، ومبدأ المؤاخاة ومبدأ التعاون (حامد عزيز، ص120).

مسألة أخرى يتطرق إليها مالك بن نبي وهي ارتباط العلم بالمبدأ الأخلاقي، ففي "وجهة العالم الإسلامي" يذهب إلى أن العلم إذا فقد الضابط الأخلاقي يتحول إلى مجرد زينة ويفقد تأثيره على الحياة والسلوك بصفة عامة، يقول: فحين يتحول العلم إلى مجرد زينة أو منفعة ذاتية، فإنه يفتقر إلى العنصر الأخلاقي الذي يربط العلم الذي بين يديه والهدف الاجتماعي العام (مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، 1986م، ص25).

وفي مقابل هذا، فإن أوروبا في نظره وإن بلغت في الفن والصناعة شأنا عظيما، إلا أنها ارتدت حسبه عن المثل الأخلاقية، لكن كل حضارة تفقد معنى الروح تجد نفسها بدورها على حافة الهاوية، ولهذا، "إن نهضة العالم الإسلامي ليست في الفصل في القيم، وإنما هي في أن يجمع بين العلم والضمير، وبين الخلق والفن، بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، حتى يتسنى له أن يشيد عالمه طبقا لقانون أسبابه ووسائله وطبقا لمقتضيات غاياته" (وجهة العالم الإسلامي، ص ص 168-169).

مسألة أخرى يمكن الإشارة إليها، وهي أن مالك بن نبي حرص على إعطاء للثقافة بعدا أخلاقيا واضحا، ففي كتابه "التأملات نراه يقول: "والحقيقة الأولى التي تبادر إلى أذهاننا هي أن الثقافة لا تستطيع أن تكون أسلوب الحياة في مجتمع معين إلا إذا اشتملت على عنصر يجعل كل فرد مرتبطا بهذا الأسلوب، فلا يحدث فيه نشوزا بسلوكه الخاص، ونحن إذا دققنا النظر في هذا العنصر، فإننا نرى أنه لا بد أن يكون خلقيا، فإذا قررنا وجود العنصر بوصفه ضرورة منطقية اجتماعية، فإننا نكون بهذا قد وضعنا فصلا هاما من فصول الثقافة، وحققنا شرطا أساسيا من شروطها وهو: المبدأ الأخلاقي. (مالك بن نبي، التأملات، 2002م، ص148)، ثم إنه يرى "أن العلم إذا تجرد من الأخلاق فإنه يجر حتما إلى وضع اقتصادي مناقض للأخلاق سواء كان ذلك في الإطار الوطني، أو الإطار الدولي، ومما تجب ملاحظته هنا، أن الاقتصاد ليس سوى إسقاط البعد السياسي على نشاط إنساني معين، فبقدر ما تبقى السياسة مرتبطة بمبادئ أخلاقية معينة، يبقى الاقتصاد وفيا للمبادئ ذاتها، فهذه

المشكلات يرتبط بعضها ببعض" (مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، 2002، ص75).

أما فيما يخص التاريخ الإسلامي، فإن الأيام الحالية التي شهدت النزاع بين علي كرم الله وجهه ومعاوية رضي الله عنه، تكشف أن السياسة حين تكون مناقضة في جوهرها للمبدأ الأخلاقي، فإنها لا تطرح قضية تحل بالقضاء ولكن بالسيف، وهو الأمر الذي يجعلنا نقول: إذا كان العلم دون ضمير ما هو إلا خراب الروح، فالسياسة من دون أخلاق ما هي إلا خراب الأمة (التأملات، ص ص79-80).

هذا، إذن، أهم ما يميز حضور الأخلاق في الرؤية الحضارية عند مالك بن نبي عن الدراسات السابقة في التراث العربي الإسلامي، غير أن المنحى النقدي لهذه الرؤية، إن هذا المفكر صاحب مشروع حضاري ضخم، ولو قدر له أن يكمل فصوله إلى النهاية، لتعمق أكثر في التراث الأخلاقي وناقش مسائله وقدم لنا قراءة جديدة حول الأخلاق الإسلامية وفق منهجية معاصرة، بيد أن أحد الباحثين يرى أن فكر مالك بين نبي يدور على ثلاثة محاور الأول التراث القديم الذي لم تساعده الظروف على الاستمرار فيه بعد "الظاهرة القرآنية" الذي يعتبره أهم ما أبدع هذا المفكر إذ وضع قواعد جديدة لفهم القرآن بغية حل قضايا المسلمين والدخول في تحديات العصر، وبتحوله من التراث الإسلامي إلى الثقافة الإسلامية المعاصرة، نقص هذا المشروع جذوره التاريخية، والثاني التراث الغربي الذي غاب فيه التخصص الدقيق والعودة إلى المصادر الأولى. وبالتالي تحول إلى الثقافة الغربية العامة الواسعة، والثالث تلخيص تحديات العصر كلها في "مشكلات الحضارة" وهو البعد الأغلب في فكره الإصلاحي، بينما توارى خلفه البعدان الأولان : التراث الإسلامي والتراث الغربي (حسن حنفي، من القصد إلى الفعل، 2003م، ص 102 ص-103)، وعلى أن الرغم من وجاهة هذا النقد، إلا أن ما ينبغي التركيز عليه هنا، هو أن المشرع الفكري لمالك بن نبي، ليس بهذه السطحية التي قد يفهمها بعض الدارسين، وإنما كشف لنا عن قدرة فائقة على التحليل، واستشراف بعيد لا يتوقف عند صراع المرجعيات الفكرية والأيدولوجيات المختلفة التي تحسن توظيف الجذور التاريخية، بل هو يتجه دوما للمستقبل وصناعة الإنسان الجديد في العالم العربي الإسلامي.

خاتمة:

في ختام هذا المقال، يجدر بنا أن نستنتج أن مالك بن نبي لا يزال حاضرا وحياء، ويثير المزيد من النقاش حوله شرقا وغربا لما يتميز به من عمق في الثقافة وسعة في العلم ودقة في المنهج الفكري، ولقد استطاع أن يمسك بأهم الإشكاليات السياسية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها، وتحديد مسارها انطلاقا من مبررات حضارية واضحة، يروح نقدية واقعية بعيدا عن التأسيس النظري المجرد، ولهذا كانت رؤيته للتوجيه الأخلاقي للحضارة منسجما مع هذا التوجه، لا سيما وأنه درس الغرب في أسسه الحضارية، واستوعب عناصره وأكد على دور الغرب الفعال وإسهامه في العلم، كما أنه حذر من تهميش الدين والأخلاق، وأسهب في إبراز الشروط التي تمكن المسلمين من العودة إلى أزهى عصورهم، كما أنه كشف عن مساوئ الصراع الفكري الذي يؤدي إلى تجميد الفكر النقدي في الوقت الذي ينبغي رسم الطريق نحو التقدم وروح المبادرة والإبداع.

وهكذا فإن المساهمة الأصلية لمالك بن نبي حول هذا الموضوع أنه بين أن شروط النهضة حاضرة بوصفها عناصر كامنة غير أن الذي يعوزها هو الطاقة المعنوية المحركة، وقد عمل في جميع مؤلفاته، على التركيز عليها من خلال مفهوم الفاعلية ومنطق الحركة والعمل، والسعي إلى القيام بالواجبات، والإيمان بالمبدأ الأخلاقي في جميع تصرفات الإنسان .

هذا، وإن الآفاق الرئيسية التي تفتحها هذه الدراسة، هي ضرورة إثراء النقاش البناء المتصل بالمشروع الحضاري وأساسه الأخلاقية والاجتماعية، والاقتصادية وغيرها، ومع كل الأقوال المنوطة بهذا المفكر، فإن قيمته العلمية الحقيقية مازالت في حاجة إلى كشف وبيان دراسات علمية أكثر عمقا ودقة وتتطوي على مقاربات ووجهات نظر متباينة.

ألا يحق لنا القول إذن، بعد كل هذا، أنه لا ينبغي إغفال الدور الذي قام به مالك بن نبي في إبداع تركيب حضاري فريد، قائم على الإنسان والتراب والوقت وفق منطق أخلاقي صارم، ولسنا ندعي أنه قد أحاط بكل شيء يتعلق بالحضارة والأخلاق والنهضة، أو أنه فكرة يخلو من الأخطاء المعرفية أو المنهجية، وعلى الرغم من هذا، لا يعني أنه صار من الماضي لا ينبغي الحديث عنه، بل علينا أن نستثمر في كل ما قاله وأكد عليه في مؤلفاته المختلفة، كنظرة مستقبلية تخطط لنهضتنا المنشودة.

قائمة المصادر والمراجع :

أولا : قائمة المصادر

- 1-مالك بن نبي، الفكرة الأفروأسيوية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر: دمشق، ط1، 1979م
- 2-مالك بن نبي، شروط النهضة ، دار الفكر، دمشق، ط1، ص1986.
- 3-مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013م.
- 4-مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر ، دمشق، ط1، 1992م.
- 5-مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية ، دار الفكر ، دمشق، ط4، 1987م.
- 6-مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط5، 1986م.
- 7-مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط1، 1987م.
- 8-مالك بن نبي، التأملات، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر ، دمشق، ط1، 1979م.
- 9-مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر ، دمشق، ط4، 1984م.

ثانيا : قائمة المراجع

- 1-محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1973م.
- 2-أحمد فؤاد الأهواني، فجر الفلسفة اليونانية قبل شقراط، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ط1، 2009م.

- 3- ابن خلدون، المقدمة، دار القلم، بيروت، ط7، 1989م.
 - 13- حامد عزيز، التربية وبناء الحضارة في فكر مالك بن نبي، منشورات مجمع الأطرس للكتاب المختص، تونس، ط1، 2010م.
 - 14- عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، مؤسسة عالم الافكار، الجزائر، ط2، 2007م.
 - 5- القشيري، الرسالة القشيري، شرح وتقديم نواف الجراح، دار صادر ، بيروت، ط1، 2001م.
 - 6- الغزالي، ميزان العمل، تقديم وتعليق علي بوملحم ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 2005م.
 - 7- مجموعة مؤلفين، المدارس الأخلاقية في الفكر الإسلامي، تعريب عبد الحسن بهباني بور، مركز الحضارة وتنمية الفكر الإسلامي، ط1، 2012م.
 - 8- نورة بوحناش، الأخلاق والرهانات الإنسانية، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2013م.
 - 9- محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2001م.
 - 10- عبد الرزاق الكاشاني، إصطلاحات الصوفية، تحقيق وتعليق عبد العال شاهين، دار المنار، القاهرة، ط1، 1982م.
 - 11- الفارابي، التنبيه على سبيل السعادة، تحقيق وتقديم وتعليق جعفر آل ياسين، دار المناهل ، بيروت، ط1، 1988م.
 - 12- ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق، منشورات دار ومكتبة الحياة، بيروت، ط1، 1961م.
 - 13- عمار طالبي، فكر مالك بن نبي والمجتمع الإسلامي المعاصر، مجموعة مؤلفين، مالك بن نبي فكره وأعماله، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، 2005م.
- ثالثا : قائمة الدوريات**
- 1- محمود الذواودي، تجليات العبر في عقل صاحب المبتدأ والخبر، مجلة المستقبل العربي تموز، العدد 329 السنة 29، 2006م.
 - 2- حسن حنفي، من القصد إلى الفعل، محاولة لإعادة بناء مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي، مجلة الدراسات الإسلامية، المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، العدد 4، 2003م.